الحياة الطيّبة
السنة 26
العدد 48-49
شتاء-ربيع 2022م
ملف العدد

المنهج الجديد في الأخلاق الإسلاميّة -الأصول والقواعد التأسيسيّة لرؤية محمد تقي مصباح اليزدي الأخلاقيّة-

د. الشيخ فادي ناصر[1]

مُستَخلَص:

إنّ نظام الأخلاق الإسلاميّة يبتني على المعرفة الصحيحة بالإنسان، بل إنّ المحورين الأساسيّين لبناء أيّ رؤية أخلاقيّة ينبغي أن تبدأ من تحديد الهدف النهائيّ لهذا الإنسان، ومعرفة أصل هذا الإنسان، باعتبارهما منطلقين أساسيّين لبناء أيّ رؤية أخلاقيّة إسلاميّة واقعيّة يُمكن أن تنسجم مع المباني والأحكام الإسلاميّة الأخرى بأبعادها التشريعيّة المختلفة، وتتلاءم مع إمكانات الإنسان واستعداداته وقواه التكوينية أيضًا؛ ولهذا كان من الضروريّ في تقويم الأعمال وتأثيرها على مصيرنا الالتفات إلى جميع الأبعاد الوجوديّة للإنسان.

ولهذا عندما نتتبع المدارس الفلسفيّة الأخلاقيّة المتعاقبة في التاريخ البشريّ سوف نلاحظ بشكل واضح أنّ أزمة هذه المدارس على المستوى المنهجيّ كانت نابعة دائمًا من الجهل بهذا الإنسان وبتحديد الوجهة والرؤية الصائبة لقراءة أبعاده قراءة صحيحة، حيث كانت هذه الرؤى

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ وأستاذ الفلسفة والعرفان في جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم العالميّة وجامعة المعارف في بيروت، من لبنان.

مبتنية على الخلفيّة الفكريّة والعقديّة التي تحملها هذه المدارس حول الإنسان.

أمّا في رؤية العلّامة اليزدي، فتأخذ النظريّة الأخلاقيّة عنده بعدًا ماورائيًا وغيبيًّا مرتبطًا بالبعد الوحيانيّ والسماويّ، وإنّ أوّل خصائص علم معرفة الإنسان التي ينبغي التأكيد عليها بنظره هي أنّ الإنسان موجودٌ مركّب من روح وبدن، وأن ما يُميّزه عن باقي الكائنات هو الفكر والإرادة والاختيار والوعي والحريّة، وهي أمور متعلّقة بالبعد النفسيّ والروحيّ للإنسان.

هذه الرؤية الأخلاقيّة المتجدّدة تريد أن تصل إلى نتيجة مفادها بأنّ الهدف الأساس للدين الإسلاميّ هو صناعة الإنسان الخَلوق المُتخلِّق بالأخلاق الإلهيّة، أي الأسماء والصفات الإلهيّة بكل أبعاده الظاهريّة والباطنيّة، وعلى الصعيدين الفرديّ والاجتماعيّ.

كلمات مفتاحيّة:

الأخلاق الإسلاميّة، مصباح اليزدي، المسألة الأخلاقيّة، علم الأخلاق، معرفة الإنسان، واقعيّة المسألة الأخلاقيّة.

الحياة الطيّبة
السنة 26
العدد48-49
شتاء-ربيع2022م
ملف العدد

مقدّمة:

تُعتبر الرؤية الأخلاقيّة الإسلاميّة والبنية التأسيسيّة لها في عصرنا الراهن من أكثر الرؤى المتناثرة في تراثنا الإسلاميّ بين دفّات الكتب الأخلاقيّة، فقد خطّ عدد من العلماء الأفاضل مجموعة من الكتب التي تناولت المسائل المتعلّقة بهذه الرؤية، ولكن بقيت غير ناضجة في ساحاتنا الفكرية الدينيّة، وغير فاعلة على المستويات الحياتيّة والاجتماعيّة، وذلك مقارنة مع الرؤى الأخرى كالفقهيّة أو العقائديّة وغيرها... وفي الوقت الذي قدّم فيه بعض العلماء في عصرنا الحاضر طروحاتهم في هذا المجال، كالشهيد مطهري (ره) مثلًا في كتابه "فلسفة الأخلاق"، ومجتبى اللاري في كتابه "رسالة الأخلاق"، وكالشيخ إبراهيم الأميني في كتاب "تزكية النفس وتهذيبها"، وغيرهم... إلا أنّه يُنظر اليوم إلى الشيخ مصباح اليزدي(ره) على أنّه أكثر من بحث ونظّر وناقش في مسائل الأخلاق من الناحية الفلسفيّة في هذا العصر، حيث قدّم الرؤية الإسلاميّة حول المسألة الأخلاقيّة بشكلٍ تأصيليّ ودقيق من خلال إبراز مجموعة من القواعد التأسيسيّة والمبنائيّة بشقّيها النظريّ والعمليّ، موضحًا ذلك في أكثر من كتاب، لا في كتاب واحد على نحو الخصوص. والملفت أنّه عرض نظريّته ورؤيته الأخلاقيّة متّبعًا عدّة مناهج معرفيّة في هذا المجال؛ كالمنهج القرآنيّ مثلًا في كتابيه "الأخلاق في القرآن" و"معارف القرآن"، والمنهج الفلسفيّ العقليّ في كتابه "معرفة الذات وبناؤها من جديد" و"كلمة حول فلسفة الأخلاق"، والمنهج السلوكيّ العمليّ في كتابه "السير إلى الله"، والمنهج النقليّ في العديد من الكتب التي يقوم فيها العلامة اليزدي بشرح الأدعية الشريفة لأهل بيت النبيّ كـ "شرح المناجاة الشعبانيّة ومناجاة المريدين"، و" شرح المناجاة الخمسة عشر"، وكتاب "وصايا إلهيّة"، و"ووصايا الإمام الصادق للسالك الصادق"، وبذلك نلاحظ كأوّل استفادة منهجيّة في طرح العلّامة الأخلاقيّ أنّه قارب المسألة الأخلاقيّة وفق منهج جامع متعدّد الأبعاد من أجل تأكيد محوريّة

الأخلاق في الرؤية الدينيّة الإسلاميّة، هذه الرؤيا التي يراها اليزدي حاكمة على كلّ الرؤى، على قاعدة مبدأ التشريع ومنتهاه.

واقعيّة المسألة الأخلاقيّة ومصدرها الإلهيّ:

المسألة الأخلاقيّة من الأمور الأوّليّة التي يدركها الإنسان على نحو بديهيّ وبأقلّ المقدمات المطلوبة فيما لو أضطر إلى ذلك. ولو نظرنا إلى المدارس التي طرحت رؤاها الأخلاقيّة الإنسانيّة، فسنلاحظ أنّ طرحها نابع من صميم إدراكها ويقينها بأهميّة البعد الأخلاقيّ في الوجود الإنسانيّ والمجتمعيّ، وأنّ الحاضرة الإنسانيّة لا يمكن أن تنعم بالاستقامة والسلام النفسيّ والعقليّ من دون حاكميّة الأخلاق وسلطتها العليا على الأفراد والمجتمعات البشريّة. ويكمن السبب في ذلك، -سواء أدرك الإنسان أم لم يدرك- في كون هذه المسائل نابعة من صميم الكيان الإنسانيّ وعدم كونها أمورًا طارئة عليه من الخارج. فكما يجهل الإنسان الكثير من المسائل المُتعلِّقة بماهيّة عقله مثلًا، مع أنّه كائن يفكّر ويتعقّل على نحو مستمرّ ودائم، وهو يتلمّس نتائج تعقّله في متن حياته الواقعيّة والعمليّة، إلّا أنّه في الوقت نفسه يجهل ماهيّة هذا العقل وحقيقته، مع القطع بوجوده وأثره المباشر على حياته، وهو كذاك لا يمكنه أن يرى خياله أو أن يضع يده على قلبه النابض بالمشاعر والأحاسيس والمعنويّات، ولكنّه مع ذلك يقطع بوجود هذه الأبعاد في حيّزه الإنسانيّ.

وبالعودة إلى الأخلاق قد يجهل الإنسان منبع هذه الحاجات الأخلاقيّة وما يرتبط بها، ولكنّه متيقّنٌ من أنّ ثمّة دافعًا ما في أعماق وجوده يستطيع أن يدرك ويُحلِّل المسألة الأخلاقيّة ويستنتج التبعات واللوازم المتوقِّفة عليها، كما ويمكنه أن يناقش وينظِّر حولها؛ لأنّها أمر مهمّ وضروريّ وبديهيّ، كبداهة وجود العقل والخيال والعاطفة عنده.

إنّ ما يدفع الإنسان إلى البحث والتعمّق أكثر في القضايا الأخلاقيّة

منذ آلاف السنين هو تلمّسه للآثار المترتِّبة عليها، فعلى سبيل المثال إذا أساء الإنسان الخُلُق -ولو كان جاهلًا بحقيقة الحسن أو القبح في هذا الخُلُق-، فهو سيتلمّس الآثار المباشرة لهذه الصفات النفسانيّة الموجودة عند كالوقوع في المشاكل وما يلحقها من آلام وعواقب محزنة، وفي المقابل إذا حسّن الإنسان أخلاقه، فسيرى نفسه في مكان المدح والاستحسان والرضى من قبل الآخرين. بناء عليه لا يستطيع الإنسان بأيّ شكل من الأشكال تجاوز المسألة الأخلاقيّة وعدم البحث عن حقيقتها وعن منطلقاتها وجذورها وكيفيّة تفعيلها بالشكل الصحيح والسليم بما يؤمّن ويخدم مصالحه الذاتيّة، من هنا تأتي أهمّيّة الدراسات الأخلاقيّة المعمّقة المتمحورة حول الرؤية الكونيّة والنفسيّة والوجوديّة للمسألة الأخلاقيّة بكلّ أبعادها وشؤونها. وهنا يتقدّم علم فلسفة الأخلاق خطوة مهمّة إلى الإمام لكي يقدّم لنا فهمًا منطقيًّا ومنتظمًا حول مكامن هذه الصفات والملاكات النفسيّة الإنسانيّة ذات التأثيرات العمليّة والسلوكيّة المباشرة في متن الحياة الإنسانيّة، وهو ما يصطلح عليه في علم الأخلاق بانتزاعيّة المفاهيم الأخلاقيّة. فالقضايا الأخلاقيّة عند اليزدي "هي في الحقيقة قضايا خبريّة وتتركّب من موضوعات ومحمولات، والموضوعات في القضايا الأخلاقيّة عناوين انتزاعيّة"[1]، أي أنّه يتمّ انتزاعها من الواقع الإنسانيّ الخارجيّ على نحو المفاهيم الفلسفيّة الثانية التي يقوم ذهننا بانتزاعها بعد ملاحظة المفاهيم الأوّليّة التي تنعكس في أذهاننا مباشرة من الأعيان الخارجيّة، من خلال ملاحظة العلاقة الخاصة الموجودة بين الأفعال وبين الآثار المترتّبة عليها في الخارج[2]، فالموضوع في القضيّة الأخلاقيّة عند اليزدي هو العنوان المُنتزع من هذه العلاقة بين الفعل وأثره في الخارج المقابل للذهن، حيث ينتزع الذهن منها مفهومًا فلسفيًّا، وبذلك تصبح موضوعات

(1) اليزدي، محمد تقي: الأخلاق في القرآن، ط2، بيروت، دار التعارف، 2010م، ج1، ص 47.

(2) مصطلح الخارج في الفلسفة يراد منه ما هو مقابل العقل والوجود الذهنيّ، فكلّ ما هو متحقّق في الواقع الخارجيّ المقابل للصور والمفاهيم الذهنيّة يصطلح عليه بالوجود الخارجيّ.

القضايا الأخلاقيّة بناء لهذه الرؤية من قبيل المفاهيم الفلسفيّة التي يكون عروضها في الذهن واتصافها في الخارج، وهذا ما يثبت خَبَريّة المسألة الأخلاقيّة وواقعيّتها مقابل نظريّة الاعتبار التي تعتبر المسألة الأخلاقيّة من قبيل الجمل الإنشائيّة، "فالصيغة الإنشائيّة غير مقوِّمة للحكم الأخلاقيّ، بل يصحّ التعبير عنه بصيغة إخباريّة"[1].

والتأكيد على واقعيّة المسألة الأخلاقيّة إنّما هو من أجل تحديد مصدر القيم الأخلاقيّة في الإسلام ومعيارها. فمصدر الحكم الأخلاقيّ عند الشيخ اليزدي هو العقل المنوَّر بنور الوحي والفطرة الإنسانيّة، وكلاهما من القضايا الواقعيّة الحقيقيّة في الخارج، وليست نتائجهما أمورًا اعتبارية أو وهميّة، وهي تهدف إلى توجيه الإنسان نحو الكمال، فمصدر "الحكم الأخلاقيّ هو العقل الحاكم بحسن الأفعال الموجبة لوصول الإنسان إلى الكمال اللائق به، ذلك الكمال الذي هو الخير المطلوب والذي يلازم السعادة المنشودة"[2]. ولكن هذا العقل لا يمكنه العمل منفردًا، بل ينبغي أن يصاحبه نور الوحي؛ لأنّ "الفعل الإراديّ لا بدّ وأن تسبقه رغبة فطريّة تتبلور في الإرادة، وأنّ شأن العقل كقوّة مدركة ينحصر في الهداية وإراءة الطريق، وأنّ مجاله غير مجال الإرادة ومبادئها. فإرادة إطاعة العقل لا بد أن تنشأ من رغبة فطريّة، وهي لا تكون إلّا الرغبة في الكمال والسعادة"[3]. وهكذا يثبت اليزدي أصالة العقل والفطرة في مصدريّة الأحكام الأخلاقيّة، ولكن من دون أن يترك مروحة تحديد المعيار واسعة وغير واضحة، بل يقيد الحكم الأخلاقيّ بمدى قدرته على إيصال الإنسان إلى الكمال، وهذا الحدّ يعتبر فاصلًا بين المبادئ الأخلاقيّة الأصيلة والواقعيّة، والأخرى الاعتباريّة والإنشائيّة التي لا تأثير لها في وصول الإنسان إلى الكمال الحقيقيّ؛ لأنّ الشيخ اليزدي يرى أنّ "معيار الفعل من وجهة النظر الأخلاقيّة هو تأثيره في وصول الإنسان

(1) اليزدي، محمد تقي: كلمة حول فلسفة الأخلاق، لا ط، قم، انتشارات در راه حق، لا ت، ص18.
(2) م. ن، ص 11.
(3) م. ن، ص 24.

إلى كمال الخاص به"[1]. والأحكام الأخلاقيّة عنده لا تتعلّق إلّا بالأفعال المحصِّلة للكمال الإنسانيّ، وهي بدورها لا تكون إلّا أفعًالا اختياريّة صادرة عن إرادة حرّة وبدافع من الرغبة في التوجّه إلى الكمال، والتي يصطلح عليها اليزدي بـ" النية"، ويؤكّد على محوريّتها في الفعل الأخلاقيّ؛ لأنّ الفعل المتمتع بالقيمة الأخلاقيّة وإن كان صادرًا عن إرادة حرّة إلّا أنّه سيكون ناقصًا إذا ما كان فاقدًا للدافع النفسيّ الموجِّه نحو الهدف الواقعيّ، وينبغي أن تكون هذه النية بتوجيه مستمرّ من العقل والوحي الهاديَين نحو الكمال الإنسانيّ، وليس العقل وحده، فالقيمة "الأخلاقيّة ليست رهن نية إطاعة العقل، بل إرادة إطاعة العقل ليست إلّا مظهرًا من مظاهر الرغبة في الكمال والسعادة"[2]، ولكن بالرغم من كون الكمال مطلوبًا ذاتيًّا للإنسان، إلّا أنّ مصاديقه ليست معروفة كلّها للجميع، بل لا بدّ لمعرفتها من إعمال الفكر والاستمداد من العقل والوحي. وهنا الرابطة العميقة التي يُنشئها الشيخ المصباح بين العقل والفطرة والنية والوحي من أجل صياغة رؤية أخلاقيّة إنسانيّة واقعيّة تهدف إلى إيصال الإنسان إلى الكمال الحقيقيّ مقابل الكمالات الاعتباريّة التي صاغتها كلّ المدارس والاتجاهات الفلسفيّة والدينيّة الأخرى عند تحديدها للمسألة الأخلاقيّة، وخصوصًا عند محاولتها - عن قصد أو غير قصد - ربط الأخلاق بالكمال الإنسانيّ الذي هو هدف العمليّة الأخلاقيّة من دون أيّ منازع، ففي "الرؤية الإسلاميّة ينبغي أن يحدّد الوحي مصاديق الأفعال الأخلاقيّة بصورة مضبوطة من حيث حدودها وشروطها وقيودها، وهذه من مزايا النظام الأخلاقيّ في الإسلام الذي يستند إلى الوحي في هذا الشأن"[3].

ولكن يبقى أن فيلسوف الأخلاق هل كان معايناً منذ البداية ومدركاً لهذه الحقيقة أم لا فهو رهن الدراسة التفصيلية لكل مدرسة على حدى،

(1) اليزدي: كلمة حول فلسفة الأخلاق، م.س، ص19.
(2) م.ن، ص 24.
(3) اليزدي: الأخلاق في القرآن، م.س، ج1، ص97.

ولكن اليزدي يؤكد أن جميع الرؤى والفلسفات الأخلاقيّة كانت تسعى للوصول إلى كمال ما وضعته نصب عينها عند مقاربتها للمسألة الأخلاقيّة، لأنّ الربط بين الأخلاق والسعادة الإنسانيّة أمر تكوينيّ- إنسانيّ لا نقاش فيه عند أغلب فلاسفة الأخلاق. ولكن تبقى الإشكاليّة الكبرى في تحديد مصداق هذا الكمال الإنسانيّ والذي بسببه تنوّعت واختلفت وتشتّت الرؤى والاتجاهات الأخلاقيّة على مرّ الأزمنة والعصور. هذا الكمال الذي يقيّده اليزدي بقيد "النهائيّ" تمييزًا له عن الكمالات غير النهائيّة، والذي يحدّده بالقرب من الله تعالى ومشاهدة جماله وجلاله وبلوغه مرتبة من الكمال بحيث لا يبقى بينه وبين ربه حجاب، بحيث يستغرق في مشاهدة جلاله وجماله. ومن أجل بلوغ هذا الهدف يحتاج الإنسان إلى تحقيق نصاب القرب من الله، والذي يحدّده اليزدي بأمرين أساسيّين:

الأوّل: الإيمان بالله واليوم الآخر

والثاني: الاتصاف بالقيم الأخلاقيّة التي تؤثّر في استعداد الإنسان للوصول إلى الكمال، وبما يزيح عنه غواشي الحجب المانعة من تحقق الهدف، "فالكمال الحقيقيّ الملازم للسعادة الأبديّة هو الارتباط بالله عزّ وجل والقرب منه، ويتوقّف على الإيمان بالله واليوم الآخر وبما أنزل الله على أنبيائه. وهذا الكمال هو الغاية المطلوبة بالذات والتي يكون الفعل الأخلاقيّ مطلوبًا للتوصّل إليها، وله درجات كثيرة متفاضلة"[1]، وهكذا يحدث الربط بين المسألة الأخلاقيّة بصورتها الواقعيّة وبين هدفها الواقعيّ أيضًا. وسوف نفصِّل الكلام أكثر في هذه المسألة في العناوين اللاحقة.

بداية المسألة الأخلاقيّة من معرفة الإنسان:

إنّ المحورين الأساسيّين لبناء أي رؤية أخلاقيّة ينبغي أن يبدأ من تحديد الهدف النهائي لهذا الإنسان، وبتبع تحديد هذا الهدف النهائيّ لا بدّ

(1) اليزدي: كلمة حول فلسفة الأخلاق، م.س، ص40.

من التوقّف عند مسألة مهمّة جدًا هي معرفة أصل هذا الإنسان، "فنظام الأخلاق الإسلاميّة يبتني على معرفة صحيحة بالإنسان"[1].

وقد يسأل سائل عن الربط والعلاقة بين النظريّة الأخلاقيّة ومعرفة الهدف، ويُمكن أيضًا أن يسأل ويجادل في العلاقة ما بين النظريّة الأخلاقيّة ومعرفة الإنسان. وإذا أردنا أن نستكشف المبادئ الأساسيّة لنظريّة الشيخ اليزدي(ره) الأخلاقيّة، فسوف نلاحظ بشكل واضح تركيزه على هذين المحورين الرئيسين، حيث يعتبرهما منطلقين أساسيّين لبناء أيّ رؤية أخلاقيّة إسلاميّة واقعيّة يُمكن أن تنسجم مع المباني والأحكام الإسلاميّة الأخرى بأبعادها التشريعية المختلفة، وتتلاءم أيضًا مع إمكانات الإنسان واستعداداته وقواه التكوينيّة. ونحن لو أمعنا النظر ودقّقنا في الجذور والمنطلقات النفسيّة والميتا-إنسانيّة للمسألة الأخلاقيّة المسألة للاحظنا بشكل واضح الارتباط العميق بين أخلاق الإنسان ومعرفة الإنسان، "فمعرفة الإنسان نفسه ومبدأه ومنتهاه، وكذلك كمالاته التي يمكن الوصول إليها، هذه المعرفة مقدمة على كلّ المواضيع، بل إنّه بدون معرفة حقيقة الإنسان وقيمته الواقعيّة لا تبقى آيّة فائدة للبحوث الأخرى"[2].

وكلّ الذين نظّروا للمسألة الأخلاقيّة سابقًا، إنما نظّروا لها من منطلق معرفتهم بالحاجات الإنسانيّة التكوينيّة ومحاولة فهمها لارتباطها المباشر بسعادة الإنسان وتعاسته في هذه الحياة، فالمصلحة الإنسانيّة الذاتيّة كانت هي المنطلق والهدف والأساس في البحث، وهذه المصلحة لكي تكون صحيحة لا بدّ أن يتمّ تأسيسها على معرفة واقعيّة وعميقة بهذا الإنسان نفسه.

(1) اليزدي: كلمة حول فلسفة الأخلاق، م.س، ص41.
(2) اليزدي، محمد تقي: معرفة الذات وبناؤها من جديد، ط1، بيروت، دار الأمير، 1992م، ص12.

والمعرفة الإنسانيّة ينبغي أن تشمل كل أبعاده الوجودية، وإلا ستغدو هذه المعرفة ناقصة، ومجتزءة وفيها الكثير من العيوب والتناقضات الداخلية، وبالتالي لن تلبي هذه الرؤية الكثير من حاجات الإنسان الحقيقية، أو ربما قد تؤمّن رغبة معيّنة وتؤذي الكثير من الرغبات في المقابل. "فمن الضروري في تقييم الأعمال وتأثيرها على مصيرنا الإلتفات إلى جميع الأبعاد الوجودية للإنسان"[1]. إذن المشكلة الأساسية التي تعاني منها أغلب المدارس الفلسفية الأخلاقيّة تكمن في انطلاقتها من المكان الخاطئ والذي ينبغي أن يتأسس حول معرفة الإنسان أو ما يمكن أن نصطلح عليه بـ"علم معرفة الإنسان". فعندما ندرك ونفهم ونعي من هو هذا الإنسان ونفقه حقيقته، عندها يمكن أن ننتقل إلى المبحث الثاني، وهو: ماذا يريد هذا الإنسان؟ أي ما هو الهدف الذي يريد أن يصل إليه، وأمّا المبحث الثالث، فيتمحور حول سؤال مركزيّ وأساسيّ: ما هي علاقة الأخلاق بالهدف الذي يريد أن يصل إليه هذا الإنسان؟

إذا تتلخّص المنهجيّة العامة للفلسفة الأخلاقيّة على الشكل التالي:

أوّلًا: البدء بدراسة ومعرفة الإنسان لكون البحث يدور حول صفات وأخلاق هذا الإنسان.

ثانيًا: اكتشاف ما يبحث عنه هذا الإنسان واقعًا وما يبغي الوصول إليه، لكونه كائنًا مختارًا يمارس أفعاله بملء إرادته ووعيه وحرّيّته، حيث إنّ الشيء الذي يريد الوصول إليه هو الذي يدفعه نحو العمل والسلوك، ما يؤشّر إلى أنّ أفعال الإنسان تكون دائمًا مُعلَّلة بغايات محدّدة لا يشوبها العبث، وبعد تحديد غاية وهدف الإنسان المتأسِّس على معرفته، يأتي البحث ثالثًا عن علاقة المسألة الأخلاقيّة بالهدف، فهل للأخلاق دور مركزيّ وأساسيّ وحقيقيّ في وصول الإنسان إلى الهدف الواقعيّ والحقيقيّ من

(1) اليزدي: الأخلاق في القرآن، م.س، ج1، ص95.

وجوده في هذا العالم أم لا؟ هكذا يُمكننا أن نحلّل الأخلاق في الرؤية الوجوديّة الإنسانيّة بحيث لا تكون هذه الأخلاق عبارة فقط عن فضائل ورذائل يتم تلمّس آثارها وثمارها فقط. بل "المقصود من العود إلى الذات والتأمّل في أعماقها والبحث عن أبعادها هنا هو أن يعرف الإنسان هدفه الأصليّ وكماله النهائيّ، وكذلك مسيرة سعادته ورقيّه الحقيقيّ، عبر التأمّل في وجوده واستعداداته الداخليّة وميوله الباطنيّة"[1]. فالقضيّة هنا ترتبط بمحاولة فهم جوهر الصفات الإنسانيّة المتأسِّسة والمُبتنية على معرفة عميقة جدًّا بالإنسان من أجل الوصول إلى معرفة موقعيّة الأخلاق عند الإنسان.

وإذا تتبّعنا المدارس الفلسفيّة الأخلاقيّة المتعاقبة في التاريخ البشريّ، فسوف نلاحظ بشكل واضح أزمة هذه المدارس على المستوى المنهجيّ النابعة دائمًا من الجهل بهذا الإنسان، وبتحديد الوجهة والرؤية الصائبة لقراءة أبعاده قراءة صحيحة، حيث كانت هذه الرؤى مبتنية على نظرة خاصّة تتحدّد وفق المباني العقديّة التي تحملها كلٌّ من هذه المدارس حول الإنسان. فمذهب نيتشه في القوّة مثلًا أو أبيقور في اللذّة وغيرها من المذاهب متأسّسة في الجوهر على فهم خاصّ عن الإنسان؛ لأنّ القوّة واللذّة وإن كانت أمورًا واقعيّة إنسانيّة، ولكن التنظير لهذين الدافعين انطلقا من معرفة ناقصة ومجتزأة بالإنسان، مما ولّد لديهم قواعد وأحكامًا ناقصة أيضًا، وانعكست بشكل سلبيّ على الصورة الواقعيّة لهدفيّة الوجود الإنسانيّ وغايته في هذا العالم.

إنّ النزول إلى أرض الواقع وعمل العقل بناءً على نظريّة تحديد الهويّة ومن ثمّ الهدف، تستدعي السؤال التالي: هل فعلًا يستطيع الإنسان أن يتجرّد عن الصفات النفسيّة؟ ولماذا؟ بحسب الاستقراء يبدو أنّه من المستحيل

(1) اليزدي: معرفة الذات وبناؤها من جديد، م.س، ص 16.

أن يتجرّد الإنسان من صفاته وملكاته النفسيّة؛ لأنّ البعد المرتبط بالصفات النفسيّة لدى الإنسان هو أمر مودَعٌ في نفسه ومجبول عليه على نحو ملازم للخِلقة، ما يعني أنّ بداهة المسألة الأخلاقيّة وتأصيلها في هذا الوجود الإنسانيّ وعدم انفكاكها عن ذات الإنسان وبنائه التكوينيّ من الأمور المسلَّمة، فالملكات النفسانيّة إنّما هي صفات متجذِّرة في باطن الإنسان، هذا الباطن الذي يكشف لنا عن نحوٍ آخر من الوجود ليس شبيهًا بالوجود المادّيّ، بل هو نحوٌ آخر من التحقّق الميتافيزيقيّ المجرّد عن المادّة؛ وهنا يكمن دور علم معرفة الإنسان لناحية اكتشاف الأبعاد المختلفة الماورائيّة لهذا الإنسان، وخصوصًا المسألة المتعلّقة بتجرّد النفس الإنسانيّة، والتي يشكّل ثبوتها انعطافة كبيرة في الرؤية الإنسانيّة، وعندما نتحدّث عن الإنسان هنا نتجه أكثر فأكثر بحسب اليزدي إلى علم النفس الفلسفيّ من منظور إسلاميّ وقرآنيّ، تحديدًا كما يبيّن في كتابه الأخلاق في القرآن، حيث أفرد جزأه الثاني لبحث علاقة معرفة النفس بالأخلاق، فأخذ بحثه هناك طابعًا تنظيريًّا لحقيقة النفس وأبعادها ودوافعها وعلاقة هذه الدوافع بالقيم الأخلاقيّة-الإسلاميّة.

إنّ أول خصائص علم معرفة الإنسان التي ينبغي التأكيد عليها هي أنّ الإنسان موجودٌ مركّب من روح وبدن، وأن ما يُميّزه عن باقي الكائنات هو الفكر والإرادة والاختيار والوعي والحريّة، وهي أمور متعلّقة بالبعد النفسيّ والروحيّ للإنسان. وقد استُدِل على تجرّد النفس الإنسانيّة بطرق ومناهج مُتعدِّدة منها فلسفيّة وكلاميّة وقرآنيّة، وقد جمع الشيخ اليزدي هذه المناهج الثلاث في الجزء الثالث من كتابه "معارف القرآن" الذي يتحدّث فيه عن معرفة الإنسان من منظور قرآنيّ وفلسفيّ ويستدلّ فيه على نحو تفصيليّ على وجود الروح الإنسانيّة وتجرّدها[1]، ومن خلال الاستدلال على مسألة تحقّق العلم والإدراك عند الإنسان، ما يُشير إلى أنّ

(1) اليزدي، محمد تقي: معارف القرآن، ط1، بيروت، الدار الإسلامية، 1989، ج3، ص187-213.

هذا الأمر غير مرتبط بالأبعاد المادّيّة للإنسان، وإنّما هو أمر مجرّد غير محدود، على قاعدة أنّه كيف يُمكن للامتناهي أن يتم تعقّله إذا كان العقل أمرًا متناهيًا؟ أو كيف يمكن شرح وتفسير مصدر مسألة الإرادة والاختيار بنحوٍ مادّيٍّ بحت؟ حقيقةً إنّ تجرّد النفس الإنسانيّة ليست أمرًا بسيطًا يُمكن تجاوزه، أو الاكتفاء بالبعد المادّيّ فيه أو الذي يتمّ تلمّسه مباشرةً، حيث يُعتبر العلم الحضوريّ كالعلم بالخوف والألم والحب وغيرها من المدركات الباطنيّة الذاتيّة من أهمّ المؤشّرات على وجود البعد المجرّد البسيط في الإنسان، في حين أنّ التطلّع إلى الجانب المادّي يكون التفاتًا إلى ما هو مركّب ومجزّأ. ويوجد دليلٍ آخر يُستخدم في علم الكلام يمكن صياغته على نحو سؤال استفهاميٍّ مبني على فرضيّة نقصان بدن الإنسان فيما لو فقد بعض أعضائه، أو فيما لوٍ هرِم الجسد وتبدّلت خلاياه مع مررو الزمن، فهل هذا النقصان يُؤدي إلى تقليص إدراكه لذاته وللأنا لديه؟ فكلّما تقدّم الإنسان في العمر كلّما بقي مستحضرًا نفسه وذاته كما لو كان يافعًا، أو كما لو كان مكتمل الأعضاء، بل نلاحظ أكثر من ذلك أنّ قوى الإنسان الإدراكيّة والعقليّة تتجوهر أكثر وتغدو أقوى مع مرور الوقت، وهذه كلّها مؤشّرات ودلالات على أنّ النفس الإنسانيّة التي هي موطن الصفات والملكات الأخلاقيّة هي بُعدٌ مجرّد في الإنسان.

وهنا تأخذ النظرية الأخلاقيّة عند اليزدي بعدًا ماروائيًّا وغيبيًّا مرتبطًا بالبعد الوحيانيّ والسماويّ؛ باعتبار أنّ موطن هذه الأخلاق ذو طبيعة مجرّدة، وهذا يعتبر المدخل الأساس نحو الأخلاق الدينيّة والإلهيّة التي تختلف كلّ الاختلاف عن الأخلاق الوضعيّة والإنسانيّة. من هنا يبيّن اليزدي أنّ علم الأخلاق وإن كان يتكفّل بتعليمنا كيفيّة تزكية النفس وتربيتها، "إلا أنّ أداء هذه المسؤوليّة والقيام بهذا الإرشاد التربويّ في علم الأخلاق منوط بمعرفة ماهية النفس قبل السير في نطاق هذا العلم ومعرفة قابليّاتها واستعداداتها عما ينبغي أن تصير عليه لكي نتمكّن من البحث في علم

الأخلاق، وهو علم قيميّ"[1]؛ إذن شرطيّة معرفة ماهيّة وحقيقة النفس بكل أبعادها تعتبر أصلًا من أصول المدرسة الأخلاقيّة عند اليزدي، وهي بالطبع من متفرّعات علم معرفة الإنسان، ولكنّها تذهب لتخصّص البحث في جوهر هذا الإنسان، والذي يتمحور النقاش فيه حول البعد الروحيّ المجرّد وارتباطات هذا البعد وتأثيراته على الأخلاق الإنسانيّة بشكل عام وتحديدا المسألة الأخلاقيّة بأنظمتها وحدودها المعرفيّة والسلوكيّة، وهنا تتضح شيئًا فشيئًا علاقة علم الأخلاق بعلم النفس الإنسانيّة من وجهة نظر اليزدي. بمعنى آخر يمكن أن نقول "أنّ المراد من العلاقة بين شؤون النفس وأبعادها، أي أنّ روح الإنسان وإن كانت موجودًا واحدًا وبسيطًا[2] ينبغي الالتفات إلى أنّ هذا الموجود الواحد ذو شؤون مختلفة، وبتعبير أوضح: ذو أبعاد مختلفة مترابطة وتكون العلاقة بين أبعاد النفس وشؤونها منشأ لانتزاع مجموعة من مسائل الأخلاق نشير إليها تحت عنوان (علاقة الإنسان بنفسه) وللمزيد من الإيضاح لا بدّ من الإشارة إلى أحد الأصول الموضوعة في علم الأخلاق يرتبط بعلم النفس وينبغي البحث بشأنه"[3].

وعند الدخول في صميم البحث النفسيّ للجوهر الإنسانيّ، وخصوصًا عند الحديث عن أبعاد هذه النفس ودوافعها يذكر اليزدي أنّ للنفس الإنسان دوافع أساسيّة ذات طابع مجرّد وعلى علاقة وثيقة بالمسألة الأخلاقيّة، يحدّدها بالتالي:

الأوّل: العلم والمعرفة: فالعلم والمعرفة من أبعاد النفس، بل العلم من ذاتيّاتها.

الثاني: القدرة: وهو المبدأ النفسانيّ للنشاط الإنسانيّ الجسمانيّ، ومصدر السلوك والعمل.

(1) اليزدي، محمد تقي: الأخلاق في القرآن، م.س، ج2، ص23.
(2) إشارة الى البعد المجرد البسيط للجوهر الإنسانيّ.
(3) اليزدي: الأخلاق في القرآن، م.س، ج2، ص19.

الثالث: الحبّ: وهو البعد العاطفيّ والميل الشعوريّ الموجود في باطن النفس.

وهذه الأبعاد والدوافع الثلاث فطريّة المصدر، أي أنّها نابعة من فطرة التوجّه عند الإنسان نحو هدفٍ ما يحدّده اليزدي بالكمال المطلق[1]، والذي يقصد به الذات الإلهيّة المقدّسة. "إنّ القدرة كالعلم والحب اللذين لكلٍّ منهما نسبة مع النفس ونسبة مع الله، ذات نسبة إلى الله أيضًا، وتكون منشأ السير إلى الله، أي أنّ الإنسان في ذاته يعرف الله بصورة فطريّة وبحبّه وبإمكانه السير والتحرّك نحوه"[2]. والنتيجة التي يتوصّل إليها اليزدي والتي تعتبر عماد رؤيته الأخلاقيّة أنّ "العلم بالنفس بملاحظة خصوصيّة وجودها الارتباطيّ سيكون منطلقًا للارتقاء نحو قمم المعرفة الإلهيّة ومعرفة أسمائه وصفاته، وعلى هذا الأساس سوف تنكشف له العلاقة الوثيقة بين الإنسان المخلوق والمرتبط بالله الخالق الربّ والمعتمد له" [3]. والعلم بالنفس يعني العلم بالدوافع الباطنيّة المغروسة في أعماق هذه النفس التي لها دور تكوينيّ أساسيّ في توجيه بوصلة الإنسان نحو الهدف السامي لحياته الإنسانيّة كما يقول الشهيد مرتضى مطهّري[4]. فمن خلال هذه الميول الفطريّة نستطيع اكتشاف سبيلٍ لمعرفة الكمال الحقيقيّ والهدف النهائيّ للإنسان؛ لأنّ هذه الميول والدوافع هي أشدّ القوى الإنسانيّة التي أُودعت في باطن الإنسان لكي ينطلق منها وبالاعتماد على القوى الجسديّة والعقليّة في حركته ونهضته وسعيه نحو كماله وسعادته، فهذه الميول كما يصفها اليزدي هي كالمؤشّر المغناطيسيّ[5] تمامًا الذي يهدينا دومًا إلى

(1) اليزدي: الأخلاق في القرآن، م.س، ج2، ص42 و44.
(2) م.ن، ج2، ص27.
(3) م.ن، ج2، ص103.
(4) كتاب الهدف السامي للحياة الإنسانيّة للشهيد مرتضى مطهّري يذكر فيه الأهداف الإلهيّة لخلقة الإنسان من منظور قرآنيّ، ويصف هذا الهدف السامي تمييزًا عن الأهداف الإنسانيّة غير السامية والتي لا تؤدّي بالإنسان إلى الغاية والمقصد الحقيقيّ لوجوده في هذا العالم.
(5) اليزدي: معرفة الذات وبناؤها من جديد، م.س، ص38.

إلى الهدف والمسير النهائيّ المطلوب لنا، هذا المطلوب الذي يحدّده بالارتباط بالموجود اللامتناهي الكامل، حيث يقول: "إنّ ما يطلبه أيٌّ من الميول الفطريّة والذي يمتدّ مداه من جهة باتجاه اللانهاية، حيث يتّحد هناك مع سائر المطلوبات، هو في الحقيقة شيء واحد، يُنظر إليه من زوايا نظر مختلفة، ويبحث عنه من جهات شتى وهو عبارة عن الارتباط بالموجود اللانهائيّ الكامل، أي القرب من الله تعالى"[(1)].

وبالعود إلى العلاقة الحاكمة بين الدوافع النفسانيّة الباطنيّة وبين الأخلاق، فإنّ أهمّيّة هذه الدوافع تكمن في أنّها هي التي تعطي القيمة للسلوك الإنسانيّ القويم الموصل إلى الحقّ وإلى الكمال وإلى السعادة الإنسانيّة. فهذه الدوافع الفطريّة وجدت في الإنسان وهي على علاقة وطيدة بالصفات والملاكات النفسانيّة الإنسانيّة، هي التي سوف تحدّد لنا ما إذا كانت القيم الأخلاقيّة صحيحة أم فاسدة بالاستناد إلى معطيات ومخرجات هذه الدوافع. فالأخلاق من منظور الشيخ اليزدي ينبغي أن تتوافق مع ميول هذه الدوافع التكوينيّة والخَلقيّة؛ لأنّها وُجدت بهدف إيصال الإنسان إلى كماله الإنسانيّ الواقعيّ. ومن دون ربط الأخلاق الإنسانيّة بالدوافع الفطريّة التكوينيّة التي جُبِلَ عليها هذا الإنسان سوف تغدو الأخلاق الإنسانيّة وضعيّة ومتغيّرة بحسب الأهواء والمعتقدات والمصالح البشريّة، وهو سوف يوقعنا حتمًا في أزمة الأخلاق الكبرى، وهي مقولة نسبيّة الأخلاق البشريّة والتي سوف تؤدّي إلى تعدّد القيم والنظم الأخلاقيّة، وبالتالي ازدياد الانفصال والتباعد الفرديّ والمجتمعيّ على حساب الوحدة الإنسانيّة التي هي عماد التوافق والانسجام والتآلف البشري الذيّ يعتبر العدل والسلام من أولى لوازمه المباشرة. وبناءً عليه يرى اليزدي أنّ "للدوافع الموجودة في النفس الإنسانيّة الدور الكبير في إضفاء القيمة على الأفعال المنجزة بفعل تلك الدوافع، سواء أكانت القيمة

(1) اليزدي: معرفة الذات وبناؤها من جديد، م.س، ص60.

إيجابيّة أو سلبيّة، وهذه من خصائص السلوك الإنسانيّ التي ينبغي الالتفات إليها سيما في الأخلاق، من هنا فإنّ الاختلاف في قيمة السلوك والأفعال الإنسانيّة تستند إلى حدّ كبير إلى الاختلاف في الدوافع في إنجازها، فعند التقويم الأخلاقيّ لفعل ما لا بدّ من معرفة دافعه الأساسيّ ومنشئه وجذوره في نفس الإنسان"[1].

محوريّة المسألة الأخلاقيّة في المنظور الإسلاميّ:

نحن حين نتلمّس النظريّة الخاصّة التي طرحها الشيخ اليزدي حول المبادئ الأخلاقيّة نلاحظ أنّه كان ينظر إلى الفلسفة الأخلاقيّة على نحوٍ خاصّ وفريد يختلف عن الرؤى الأخلاقيّة السابقة التي تتمحور حول الفضائل والرذائل، وبذلك نلاحظ أنّ النظريّة الأخلاقيّة عنده متشعّبة ومرتبطة بأبعادٍ أخرى للوصول في النهاية إلى نتيجة مفادها أنّ حقيقة الدين وجوهره على تماس مباشر مع المسألة الأخلاقيّة بحسب المنظور الإسلاميّ. وقد تمكّن الشيخ اليزدي من التوصّل إلى هذه النظريّة من خلال توسعة المسألة الأخلاقيّة بدلًا من حصرها بين مسائل التخلّي والتحلّي أو في جعلها مفردة جزئيّة تتناول بُعدًا من أبعاد وجود الإنسان المرتبط بصفاته.

وهكذا أصبحت المسألة الأخلاقيّة ذات رؤية أعمق ومفهوم أكثر شموليّةً واتّصالًا وارتباطًا بالدين والتوحيد، وأشدّ تعلّقًا بمسائل المبدأ والمعاد، حيث تتشعّب هذه الرؤية لتطال جوانب أخرى لا تمسّ البُعد الصفاتي في الإنسان فقط، بل حقيقة الأمر أنّه أكثر شموليّة واتساعًا، فالشيخ اليزدي يربط بين الأخلاق وبين معرفة الهدف الإنسانيّ، وبين الأخلاق والإيمان والعمل، بين الأخلاق ونيّة العمل والإخلاص، بين الأخلاق واتّباع الشريعة بأدقّ تفاصيلها، بين الأخلاق والبناء الاجتماعيّ والسياسيّ، بمعنى آخر بين

(1) اليزدي: الأخلاق في القرآن، م.س، ج2، 61.

الأخلاق وبين جوهر الرؤية الدينيّة الأصيلة بأهدافها الواقعيّة والوحيانيّة[1].

هذه الرؤية تكشف عن بعدٍ جديد للنظريّة الأخلاقيّة، وهي مختلفة تمامًا عمّا كان سائدًا في السابق، سواء أكان في النظريّة الأخلاقيّة التقليديّة المتمحورة حول فضائل ورذائل، أم حتى بناءً على النظريّة السلوكيّة التربويّة أو ما يعرف بعلم السير والسلوك بمعناه التقليديّ الذي يعتمد فيه السالك على المرشد والمربّي، أو يحصر عملية التربية بالبعد الفرديّ والشخصيّ بعيدًا عن أيّ نشاط فكريّ أو عقليّ أو اجتماعيّ.

هذه الرؤية الأخلاقيّة المتجدّدة توصل إلى نتيجة مفادها أنّ الهدف الأساسيّ للدين الإسلاميّ هو صناعة الإنسان الخَلوق المُتخلِّق بالأخلاق الإلهيّة، أي الأسماء والصفات الإلهيّة بكلّ أبعادها الظاهريّة والباطنيّة، وعلى الصعيدين الفرديّ والاجتماعيّ. فالصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها الإنسان ترجع في الحقيقة إلى الحقّ سبحانه وتعالى على نحو لا تنفكّ فيه عنه؛ لأنّها مظاهره وتجلّياته وآياته، وهذه الصفات ليست صفات اعتباريّة أو وضعيّة، بل هي أمور حقيقيّة، والهدف الأساس منها صيرورة هذا الإنسان كاملًا من خلال التحقّق بهذه الأسماء والصفات. وهكذا يتبيّن الربط بين الأخلاق الإنسان وهدفه الوجودي ومسألة معرفة الله وتوحيده والاتصاف بصفاته الذي يعدّ بحسب هذه الرؤية الأخلاقيّة الكمال النهائيّ للإنسان. وإذا سألنا عن الطريق المؤدّي إلى هذا الكمال، فالجواب يكمن بكلمة واحدة، وهي: "القرب"، أي القرب من الله تعالى، هذا القرب الذي يتحقّق من خلال التخلّق بالأخلاق الإلهيّة والاتّصاف بصفاته الجماليّة والجلاليّة. وعمليّة التخلّق هذه تحتاج بطبيعة الحال إلى معرفة بالله والإيمان به وإلى العمل الصالح والتقوى، وهي بدورها لا تتحقّق إلّا بالطاعة والعبوديّة الخالصة والمطلقة له تعالى بكل الأبعاد والشؤون الإنسانيّة الظاهريّة

(1) يظهر ذلك بشكل جليٍّ وواضح في كتب الشيخ مصباح اليزدي، خصوصًا كتاب الأخلاق في القرآن بأجزائه الثلاث.

والباطنيّة. وهنا نلاحظ العلاقة الفريدة التي ينسجها الشيخ اليزدي بين البعد العقديّ والإيمانيّ من جهة، وبين البعد العمليّ السلوكيّ من جهة أخرى في صياغة المسألة الأخلاقيّة وصناعتها على نحو منتظم ومترابط من أجل الوصول إلى الهدف.

بمعنى آخر الحديث عن الأخلاق في المدرسة الأخلاقيّة الإسلاميّة يعني الحديث عن الكمال الإنسانيّ والوصول إلى الهدف الوجوديّ لهذا الإنسان في هذا العالم، وهو ليس شيئًا غير التوحيد الإلهيّ. وهكذا نتلمّس الأخلاق الهادفة التي توصل الإنسان إلى الكمال الحقيقيّ، والتي يكون متعلّقها هو الحقّ تعالى. "فمعيار حسن الفعل من وجهة النظر الأخلاقيّة هو تأثيرها في وصول الإنسان إلى كماله الخاصّ به... فالفعل الأخلاقيّ الموصل إلى الكمال الإنسانيّ إنّما يكون فضيلة لأجل أنّه سبيل إلى كمال أعلى مما يحصل من فعل الحيوان"[1]، أمّا الهدف من العمليّة الأخلاقيّة والكمال الحقيقيّ الملازم لها، فهو كما يقول اليزدي لا يتحقّق إلّا بالإرتباط الصحيح بالحقّ تعالى، كما يقول: "الكمال الحقيقيّ الملازم للسعادة الأبديّة هو الارتباط بالله والقرب منه، ويتوقف على الإيمان بالله واليوم الآخر، وبما أنزله الله تعالى على أنبيائه، وهذا الكمال هو الغاية المطلوبة بالذات، وبالتالي يكون الفعل الأخلاقيّ مطلوبًا للتوصّل إليها، وله درجات كثيرة متفاضلة"[2].

وهنا نكتشف كيف تصبح رؤية اليزدي الأخلاقيّة دينيّة توحيديّة بامتياز؛ لأنّنا إذا نظرنا إلى الهدف من الدين الإسلاميّ والهدف الأخلاقيّ سنلاحظ أنّهما متطابقان وأنّهما عين بعضهما. وهو ما يمكن أن نطلق عليه تسمية "عينيّة الدين والأخلاق". فالدين هو عين الأخلاق، والأخلاق هي عين الدين. والسؤال الأساس الذي يطرح حول إشكاليّة علاقة الدين بالأخلاق؛ أنّ هذه

(1) اليزدي: كلمة حول فلسفة الأخلاق، م.س، ص19.
(2) م.ن، ص40.

العلاقة هل هي علاقة وحدة واتّحاد، أم هي علاقة عرضيّة مع بقية الأبعاد والتشريعات الدينيّة؟ والجواب هو أنّه بناءً على نظريّة عينيّة الأخلاق والدين، وأنّ العلاقة بينهما علاقة اتحاد وعينيّة وليست علاقة ترابط عرضيٍّ، فهنا نستطيع أن نفهم سبب ورود الحديث عن النبيّ محمّد ﷺ أنّه سُئل ما الدين يا رسول الله؟ فأجاب: "حُسن الخُلق"[1]، وقوله ﷺ: "إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق"[2]. وبناءً على هذه النظريّة لا يُمكن أن يكون الإنسان متديِّنًا على نحو واقعيّ وحقيقيّ وواصلًا إلى حدود الكمال الإنسانيّ ما لم يكن متخلّقًا بالأخلاق الإلهيّة ومتحقّقًا بالصفات الربّانيّة، وهذا بطبيعة الحال يضعنا أمام سؤال كبير حول واقع التديّن الأخلاقيّ اليوم؟!

إنّ الواقع الذي يُمكن أن نصفه بأنّه نابعٌ من الإيمان والاعتقاد والالتزام بالعبادات والمعاملات بعيدًا عن حاكميّة الأخلاق الدينيّة هو مبنيّ في الحقيقة على الورع الفقهيّ وليس الورع الأخلاقيّ، أي على الورع الناتج عن الأحكام الشرعيّة الفقهيّة وليس الورع الناتج عن الأحكام الأخلاقيّة السلوكيّة التي يُراد من خلالها تأديب النفس وتربيتها بحسب منهج علم الأخلاق والتربية الإسلاميّة الذي يرى في الأحكام الدينيّة وسيلة من أجل تزكية النفس وجهادها؛ لأنّها الطريق الوحيد للوصول إلى الهدف الواقعيّ للخلقة الإنسانيّة على قاعدة ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[3] و ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[4]، وغيرها من الآيات القرآنية التي يستكشف منها بشكل واضح المقصد والهدف التشريعيّ للأحكام، ألا وهو تربية النفس وتهذيبها من أجل التخلّص من كلّ أنواع الفواحش والآثام، ما ظهر منها وما بطن. "فالاستثمار الصحيح للقوى الإدراكيّة إنّما يتيسّر إذا كان القلب طاهرًا من أنماط الدرن الماديّ والهوى النفسيّ، والذهن خاليًا من الأحكام المسبقة،

---

(1) المجلسي، محمد تقي: بحار الأنوار، ط2، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، 1403هـ ج68، ص393.
(2) م.ن، ج16، ص 210.
(3) سورة العنكبوت، الآية 69.
(4) سورة الأعلى، الآية 14.

متزيّنًا بالتقوى المناسبة، فالتكامل في مدارج التقوى هو الذي يصوغ الإنسان مستعدًّا لتلقّي الأنوار المعنويّة والإلهامات الملائكيّة والربّانيّة"[1]، ولكنّه نوع من التقوى والورع لا يقتصر على الجانب الفقهيّ- الجوارحيّ، بل يتعدّاه إلى الجانب التربويّ- التأديبيّ للنفس من أجل تحصيل طهارتها اللازمة التي تؤهّل النفس لنيل الفيوضات الإلهيّة اللائقة بها. فعندما ندقّق في الآيات القرآنيّة التي ذكرت مسألة الإثم، نلاحظ أنّها لم تتحدّث عن الآثام الظاهريّة فقط، وهي التي يتمّ ضبطها من خلال الأحكام الفقهيّة، بل ذكرت بشكل صريح وواضح نوعًا آخر من الآثام والفواحش، وقيّدتها بوصف "الباطنيّة"، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾[2]، ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾[3]. ويمكن في هذا المجال أن نذكر تطبيقًا قرآنيًّا واحدًا كشاهد على ما نقوله، ويوجد عشرات الشواهد والأدلة القرآنيّة المشابهة. ففي مقام بيانه لعلل ومقاصد تشريع حكم الصلاة ذكر المولى تعالى أنّ الهدف من تشريع الصلاة هو الانتهاء عن الفحشاء والمنكر ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾[4]، ثمّ في آية أخرى يبيّن لنا القرآن الكريم أنّ الفحشاء والآثام على نحوين؛ ظاهريّ وباطنيّ، وسؤالنا هو عن النوع الثاني أي الآثام الباطنيّة، فأيّ علم يتولّى بيانها والكشف عن خفاياها ويعلّمنا كيفيّة التخلّص منها؟ أيّ منهج علميّ يعلّمنا كيف نتحقّق بمقام الإخلاص، والرضى، والتسليم، والتوكّل وغيرها من الفضائل الأخلاقيّة المعنويّة ذات الخصائص النفسيّة الباطنيّة أو ما يصطلح عليه بالخصال الجوّانيّة للنفس الإنسانيّة؟ أيُّ منهج علميّ يعلّمنا كيف نتخلّص من الشرك الخفيّ، ومن الرياء، والعجب، والحسد، وحب النفس والأنا؟ بمعنى آخر أيّ علم يضع الإنسان على جادة تربية النفس

(1) اليزدي: معرفة الذات وبناؤها من جديد، م.س، ص142.
(2) سورة الأنعام، الآية 120.
(3) سورة الأعراف، الآية 33.
(4) سورة العنكبوت، الآية 45.

وتهذيبها من هذه الأمراض والعلل القلبيّة التي تحدّث عنها القرآن أيضًا بشكل واضح وصريح، كما في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾[1]، وقوله تعالى في آية أخرى ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾[2]، وقوله في آية أخرى ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾[3]، وفي المقلب الإيجابيّ الآخر من الطرح القرآنيّ يقول الله تعالى بشكل حاسم إنّ أهمّ ما ينفع الإنسان ويصلحه في يوم القيامة هو الحضور في هذا المشهد الإلهيّ بقلب طاهر ونقيّ من كلّ الأمراض والعلل المعنويّة والأخلاقيّة؛ لأنّ أمراض القلب ليست من خصائص المادّة والحس، ولا هي من أطوار الجوارح الخارجيّة بلا شكّ؛ ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾[4].

وإذا عدنا إلى الروايات الشريفة، فإنّ التدقيق في الأحاديث المأثورة عن النبيّ محمّد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام يثبت لنا أنّ ثمّة مساحةً واسعة من الأحاديث قد صيغت في إطار التعليل الأخلاقيّ، وبخلفية بيان علل الشرائع ذات الاتجاه المعنويّ والباطنيّ للنفس، ففي الكثير من العلل المذكورة للأحكام الفقهيّة يوجد التفات إلى الدوافع التي تندرج تحت الأهداف الأخلاقيّة. مما يشير إلى العلاقة السببيّة الواضحة بين تشريع الأحكام والوصول إلى التسامي والتعالي الأخلاقيّ، كما في هذه الرواية الطويلة الذيل التي سوف نذكر بعض المقتطفات منها لتقريب الصورة ليس أكثر، والتي يظهر فيها بشكل واضح التلاحم الكبير بين أصل التشريع الفقهيّ والتكامل الأخلاقيّ. فعن الإمام الرضا عليه السلام في رواية يرويها محمّد بن سنان يقول في علّة تشريع الصلاة والزكاة والحج والصوم: "أنّ علّة

(1) سورة البقرة، الآية 10.
(2) سورة محمد، الآية 29.
(3) سورة الحج، الآية 53.
(4) سورة الشعراء، الآيتان 88-89.

الصلاة أنّها إقرار بالربوبيّة لله عزّ وجلّ، وخلع الأنداد، وقيام بين يدي الجبار جلّ جلاله بالذلّ والمسكنة والخضوع والاعتراف، والطلب للإقالة من سالف الذنوب، ووضع الوجه على الأرض كلّ يوم، إعظامًا لله جل جلاله، وأن يكون ذاكرًا غير ناسٍ ولا بطر ويكون خاشعًا متذلّلًا راغبًا طالبًا للزيادة في الدين والدنيا مع ما فيه من الإيجاب والمداومة على ذكر الله عز وجل في الليل والنهار؛ لئلا ينسى العبد سيّده ومدبّره وخالقه، فيبطر ويطغى، ويكون ذلك في ذكره لربّه جل وعزّ وقيامه بين يديه زاجرًا له عن المعاصي ومانعًا له من أنواع الفساد"[1]. نلاحظ في هذه الرواية التعليل الواضح للمسائل الأخلاقيّة التي ذُكرت في مفردات كالمسكنة، الخضوع، الخشوع، التذلّل، الرغبة، البطر، الطغيان، الفساد وغيرها من العلل التي يظهر فيها الطابع القيميّ والأخلاقيّ. وفي موضوع آخر "عند الحديث عن علّة تشريع الصوم تمّت الإشارة إلى موارد من قبيل: تقوية الصبر، والابتعاد عن الشهوات، والاهتمام بمشاكل المحتاجين والبائسين. وعند الحديث عن علل الحجّ يشير إلى التخلّي عن قسوة القلب، وعدم الغفلة عن ذكر الله، والاهتمام بحقوق الآخرين، وكفّ النفس عن الفساد، كما أشارت الرواية إلى أنّ الحجّ فرصة لاجتماع المسلمين والتعرف على مشاكل بعضهم، وبذلك يمكن لأهل المُكنة أن يقدّموا يد العون لإخوانهم من ذوي الحاجة"[2].

ومن بين الأمور التي حَظيَت بالاهتمام وكانت مسار بحث ونقاش في الحدود الفاصلة بين الأخلاق والدين، مسألة الاحتياط الشرعيّ، سواء أكان نابعًا من شبهة حكميّة أو موضوعيّة، حيث يفرّق العلماء، وخصوصًا علماء الأخلاق بين الاحتياط الذي يكون هدفه تدارك الجهل أو الشكّ في الموضوع أو الحكم، ويسمّى بالاحتياط الاستدراكيّ، وهو عادة ما يكون

---

(1) الصدوق، محمد بن بابويه، من لا يحضره الفقيه، ط2، قم، مؤسسة النشر الإسلاميّ، 1413هـ، ج1، ص215.

(2) باكتجي، أحمد: النسبيّة بين الفقه والأخلاق في تعاليم الإمام الرضا، نحن وتراثنا الأخلاقيّ، إعداد عامر عبد زيد الوائليّ، ط1، العراق، المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيّة، 2018، ج1، 2264.

مورد البحث في الدراسات الفقهيّة، وبين الاحتياط الذي يكون هدفه تربية النفس وتأديبها ويسمّى بالاحتياط التأديبيّ، وعادة ما يبحث في الدراسات والأبحاث الأخلاقيّة. ففي "الوقت الذي يقع الاحتياط الاستدراكيّ في دائرة الورع الفقهيّ، فإنّ الاحتياط التأديبيّ يرفع الأسوار القائمة بين الفقه والأخلاق"[1]. وتوجد العديد من الأمثلة والشواهد على هذا التداخل بين كِلا نوعي الاحتياط في أحكامنا الشرعيّة وعلى العلاقة الحاكمة بينهما بحسب المقام والحال وتنوّع الدرجات والمراتب، وتأثير هذا التنوّع والاختلاف على أولويّة المسألة الأخلاقيّة من عدمها، وعلى العلاقة التي تربط كلًّا من الفقه والأخلاق ببعضها. ويمكن العثور عل نماذج عديدة من الاحتياط التأديبيّ والاستدراكيّ في الروايات، كما في مسألة تحديد عدد الزوجات الدائمة بالأربعة، وإطلاق العدد في الزواج المنقطع فلا يشمله التحديد، وقد نقل هذا القول المشهور علماء الإماميّة عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام. ولكن في المقابل عندنا أحاديث مأثورة عن الإمام الرضا عليه السلام يشير مضمونها إلى إدراج الزواج المنقطع ضمن الزوجات الأربعة كما في هذه الرواية عن الشيخ الطوسي في تهذيب الأحكام، عن أبي الحسن عليه السلام: "قال: قلت: سألته عن الرجل يكون عنده المرأة أيحلّ له أن يتزوّج بأختها متعة؟ قال: لا، قلت: حكى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام إنّما هي مثل الإماء يتزوّج ما شاء؟ قال: لا، هي من الأربع". يقول الطوسيّ: فليس هذان الخبران منافيين لما قدّمناه من الأخبار؛ لأنّ هذين الخبرين إنّما وردا مورد الاحتياط دون الحظر، والذي يكشف عما ذكرناه ما رواه أحمد بن محمّد بن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: "قال أبو جعفر اجعلوهن من الأربع، فقال له صفوان بن يحيى: على الاحتياط؟ قال: نعم"[2]. إذن بناء على المأثور من الروايات الشريفة نلاحظ أنّ لدينا نوعين من الاحتياط أحدهما نابع

(1) م.ن، ج1، ص265.
(2) الطوسي، محمد بن الحسن: تهذيب الأحكام، ط1، طهران، دار الكتب الإسلامية، لا ت، ج7، ص309.

من الورع الفقهيّ والذي يهدف إلى استدراك ما فات المكلّف من أحكام بسبب جهله وقلّة معرفته، والآخر نابع من الورع الأخلاقيّ الذي يهدف إلى تأديب النفس وتربيتها وتهذيبها بهدف تكميل النفس وتساميها المعنويّ، وما ورد في أحاديث المعصومين عليهم السلام "عن الاحتياط الاستدراكيّ يمكن العثور على نماذج تعود إلى أصل تشريع الحكم، وهو بصدد إثبات أنّ الحكمة من التشريع قد أمرت برعاية الاحتياط بشكل كامل أو على نحو جزئيّ، وهو احتياط ربما أمكنت تسميته بالاحتياط الشرعيّ، ولا بدّ من الالتفات إلى اختلافه المبنائيّ عن الاحتياط التأديبيّ"[1]، وهنا تحديدًا تأخذ العلاقة بين الأخلاق والدين صورة مختلفة تتحدّد على أثرها أصالة المسألة الأخلاقيّة في الرؤية الشرعيّة والدينيّة، ومركزيّتها في بناء المعرفة الصحيحة والسلوك القويم للإنسان الذي يسعى للثبات على صراط الله المستقيم.

أمام هذا العرض الأوّليّ المختصر والموجز - لأنّ الكلام فيه يطول ولا ينتهي - لعمق النظريّة الأخلاقيّة الإسلاميّة المتّصلة بشكل عميق بمصير الإنسان وعاقبته ورتبته الوجوديّة من الكمال والسعادة في هذه النشأة والنشأة الأخرى، نستطيع أن نستخلص الارتباط الوجوديّ والتكوينيّ والتشريعيّ العميق بين الدين والأخلاق. وبات من الواضح أنّه لا يمكن أن نفصل ما بين الرؤية الدينيّة الواقعيّة بأهدافها الإلهيّة الكبرى وبين الأخلاق الإسلاميّة بأبعادها المعنويّة الباطنيّة والروحيّة الغيبيّة، باعتبار أنّ للإنسان بعدًا غيبيًّا حقيقيّا حاضرًا الآن في وجوده الماديّ، وهو صائر ومنتقل إليه بعد هذه النشأة الماديّة المتصرّمة.

وإذا عرجنا مثلًا إلى مسألة النيّة التي من المعلوم أنّها من شروط صحّة العبادة، فلكي تكون النيّة صحيحة ومقبولة يُشترط فيها الإخلاص، وهنا نسأل أنّه من يُعلّمنا مناهج الوصول إلى مقامات المخلصين ونحن

(1) باكتجي: النسبيّة بين الفقه والأخلاق في تعاليم الإمام الرضا، م.س، ج1، ص268.

أمرنا بأن نكون من المخلصين؛ ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾[1]؟ فالإخلاص شرط مقبوليّة العمل وشرط تكامل الإنسان، بل هو شرط الأمر بالطاعة أيضًا كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2]، أو كما يقول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[3]. فموضوع عدم الشرك والإخلاص هو من أسس الإيمان والتديّن الإسلاميّ أيضًا، فأيّ منهج علميّ هو مسؤول عن تعليمنا كيفيّة الإخلاص؟ وآية ﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ في الحقيقة تكفي وحدها كي تكشف لنا الواقع الذي نحن عليه من جهة، والذي ينبغي أن نكون عليه من جهةٍ أخرى. فكلّ من يقرأ هذا المنهج الأخلاقيّ سوف يسأل نفسه هذا السؤال: أين الأخلاق اليوم في الرؤية المعاصرة؟ هذا سؤال طرحه الشيخ اليزدي وسعى عمليًّا إلى تصحيح خطأ فصل الأخلاق عن الدين باعتبار أنّ المسألة الأخلاقيّة هي في صلب الطرح والرؤية الدينيّة الإسلاميّة وليس على هامشه. ويظهر هذا الطرح بشكل جليٍّ من منهج الشيخ اليزدي الفكريّ والذي تجلّى في أبحاثه ودراساته الأخلاقيّة ذات المنابع الفلسفيّة والقرآنيّة والروائيّة-النصّيّة، حتّى أنّه قُدّس سرّه في معرض شرحه للأدعية الشريفة تراه يؤكِّد على محوريّة الدعاء في عمليّة التخلّق بالأخلاق الفاضلة والصفات الإلهيّة والتي هي أحد أهمّ أهداف وأسرار الأدعية والمناجاة، حيث يقول في شرحه لمناجاة المحبّين للإمام زين العابدين عليه السلام: "إنّ الالتزام بقراءة الأدعية والمناجيات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام ينير ذهن الإنسان ليتعرّف على الصفات الإنسانيّة المتعالية والدرجات الرفيعة التي يمكن أن ينالها ويدرك السبل الصحيحة للارتباط بالله تعالى، فهذه التعاليم الدينيّة بما تحمله من قيم إنسانيّة تعرّف الإنسان على بعض الحقائق الإلهيّة التي تحجبها

(1) سورة الأعراف، الآية 29.
(2) سورة البيّنة، الآية 5.
(3) سورة الكهف، الآية 110.

عنه اهتماماته المادّية وظروف حياته اليوميّة، ولا تمنحه الفرصة الكافية للتفكير فيها. فقراءة هذه الأدعية والمناجيات تجعل الإنسان يتعرف على السبل والأدوات اللازمة لطيّ مسيرته التكامليّة نحو الرقيّ والتعالي، وتكشف له ما ينفعه ويضرّه، وتجعله يدرك أنّ الحياة الدنيا لا تقتصر على الأكل والشرب والشهوات المادّيّة، بل تحمل في طياتها حقائق إلهيّة تمنح حياة الإنسان هويّتها وتعاليها الأخلاقيّ، وترسم شكل حياته الإنسانيّة والمعنويّة"[1]. وهكذا تصبح الرؤية الأخلاقيّة عند الشيخ مصباح اليزدي أخلاقًا تحمل في طيّاتها بذور التجديد على مستوى المنهج والفهم وبناء الأولويّات من أجل قيادة سفينة البشريّة نحو الأهداف الحقيقيّة للخلقة الإنسانيّة.

(1) اليزدي، محمد تقى: شرح المناجيات الخمس عشرة، ط1، بيروت، دار المعارف الحكميّة، 2019م، ج2، ص253.